السنة الأولى ماستر
التخصص: تاريخ الجزائر الحديث 1519-1830
المقياس: التحولات الكبرى في غربي البحر المتوسط

الصراع العثماني الأوربي في البحر المتوسط وتداعياته - 1

أ.د. عبد القادر فكاير

ولقد ترتب عن المد العثماني إلى البحر المتوسط أن جعلها تدخل في صراع مع القوى الأوربية وقد كان للأسطول الجزائري مساهمات فعالة في العديد من المعارك البحرية التي كانت تخوضها الخلافة العثمانية ضد التحالفات الأوربية التي كانت في الغالب تشرف عليها البابوية في روما . ومن أهم هذه المعارك ما يلي :

1 - معركة بريفيزا(Prevesa) 1538 :

جاءت معركة بريفيزا (وهي مدينة تقع على الساحل الشرقي للبحر الأيوني الشمال من خليج دارتا، وهي اليوم تابعة لليونان) إثر تشكيل حلف مسيحي في روما في شهر فيفري من سنة 1538.جمع كلا من البابوية التي كان على رأسها البابا بولس الثالث. والإمبراطور شارل الخامس والبندقية. جمع هذا التحالف قوات عسكرية كبيرة، تشكلت من أسطول بابوي متألف من ستة وثلاثين سفينة ، وثمانين قطعة بحرية أسبانية ، وشاركت البندقية بنفس العدد ، وجنوة بستين سفينة ، والبرتغال بخمسين ، ومالطا بعشرة سفن ، وجاءت عمارات من منطقة الفلاندر ، إلى جانب القراصنة المسيحيين . كانت تحمل في مجملها ألفين وستمائة مدفع، وستين ألف رجل. وكان الأسطول تحت قيادة فرديناند غونغازي، بمساعدة كل من أندري دوريا قائدا للقوات الأسبانية ، وبطريق أكيليا قائد القوات البابوية ، ودومينغو كابيللو (Domingo Capello)قائد القوات البندقية .

وفي المقابل كان الأسطول الإسلامي ، الذي كان تحت قيادة خير الدين ، يتشكل من مائة وثلاثين سفينة متجانسة. على متنها قوات يتراوح عددها بين العشرين والثلاثين ألف رجل، يقودهم بحارة مشهورون مثل درغوث وسنان باشا وصالح رايس وغيرهم . وقعت المعركة بين الأسطولين عند مدينة بريفيزا . وقد أسفرت هذه المعركة على انسحاب الأسطول المسيحي ، وخلال شهر مارس من سنة 1539، تمكن خيرالدين من تحرير حصن كاستلنويفو (Castelnuevo) الذي احتله أندري دوريا أندري دوريا، بعدما قضى على حاميتها المتكونة من أربعة آلاف جندي ،على رأسهم قائدهم فرانسيسكو سارميينتو . كانت خسائر التحالف المسيحي تتمثل في 36 سفينة ، و3000 أسير ، أما عن الخسائر الإسلامية، فقدرت بـ.400 قتيل و 800 جريح.

لقد دفعت الانتصارات الإسلامية بالبنادقة إلى التفكير في مصالحهم التجارية في المنطقة ، فانسحبوا من التحالف المسيحي ، وشرعوا في سلسلة من الفاوضات استمرت لمدة ثلاثة أشهر، توجت بإبرام صلح منفرد مع العثمانيين في 2 أكتوبر 1540 . تكون البندقية بموجبه سيدة على المواقع التي كانت تابعة لها ، والاعتراف العثماني بنشاطهم التجاري في شرق البحر المتوسط ، ومنحهم موقعين في حدودهم مع مقدونيا وحصنين من دالماسيا .

2 ـ حصار مالطة 1565:

وساهمت الجزائر إلى جانب الأسطول العثماني في الحصار الشهير الذي ضربته على مالطا، التي كانت بحكم موقعا في وسط البحر المتوسط ، تعد مركزا هاما بالنسبة للمسيحيين بصفة عامة ، وللأسبان بصفة خاصة ، باعتبارها مركزا عسكريا مسيحيا يحد من نشاط المسلمين في البحر المتوسط . ولهذا الغرض وطّن شارل الخامس في 24 مارس 1530 فرسان القديس يوحنا بأرض الجزيرة ، بعدما طردهم السلطان سليمان القانوني من جزيرة رودس، وسيّدهم على ساحل مدينة طرابلس ، وفي المقابل يقدم هؤلاء هدية سنوية لحاكم صقلية عربونا لتبعيتهم للإمبراطور ، وأصبح يطلق عليهم منذ ذلك الحين اسم " فرسان مالطا " .

ولما استقر الفرسان بالجزيرة أخذوا في مهاجمة السفن التجارية الإسلامية ، ويسوقونها إلى مالطا . كما كانوا يتعرضون إلى الحجاج المسلمين وهم في طريقهم عبر البحر إلى مكة . وكانوا كثيرا ما يشاركون ضمن الأسطول المسيحي الذي كانت تشكله أسبانيا في اعتداءاتها على السواحل المغربية من بينها الجزائر ، حيث ساهموا ضمن أسطول شارلكان في غزوه لتونس سنة 1535 بسبعمائة فارس . كما شاركوا في الحملة على مدينة الجزائر سنة 1541 بستة سفن وسبعمائة وخمسون جندي. وكانت جزيرة مالطا مقرا لانطلاق الحملة الصليبية التي وجهت ضد جزيرة جربة سنة 1560 .

ولما أدرك السلطان العثماني خطرهم على حركة سفنه ؛ قرر ضرب الحصار على الجزيرة بالاعتماد على المقاتلين المغاربة . فراسل حسن باشا حاكم الجزائر في شهر سبتمبر1564 ، وأعلمه عن عزمه بتوجيه قوه عسكرية كبيرة ضد جزيرة ماطا خلال الربيع المقبل، كما طلب منه المساهمة بقواته البحرية المتمرسة في الحصار. وفي 20 مارس 1565 أقلع الأسطول العثماني بقيادة بيالي باشا ، على أن تلتحق به في الطريق سفن الأقاليم العثمانية الأخرى ، أصبح يضم عند بداية الحصار في يوم 18 ماي، نحو مائتي سفينة.

ولما علم قائد فرسان مالطا يوحنا دي لافاليت باريسو(Jean de la Valette Parisot) بالأمر سارع إلى استدعاء فرسانه المنتشرين في مختلف المراكز الأوربية ، كما

استأجر جنود مرتزقة من إيطاليا ، و نظم الحصون ووفر المؤونة ، وراسل كل من البابا بيوس الرابع وفيليب الثاني ملك أسبانيا يطلب منهما إرسال قوات عسكرية.

وصلت القوات العثمانية إلى مالطا في يوم 18 ماي 1565 ، التحق بها علج علي من الأسكندرية في يوم 24 ماي بستة سفن تحمل تسعمائة رجل وعدد من المدافع وأسلحة أخرى. كما التحق القائد درغوث من طرابلس في يوم 2 جوان على رأس خمس عشرة سفينة ، على متنها ألف وثلاثمائة رجل . ووصل حسن باشا من الجزائر في يوم 28 جوان ، على رأس أسطول يتألف من ثمانية وعشرون سفينة ، على متنها ألفي وخمسمائة رجل.

وفور وصول الأسطول العثماني بدأ الإنزال في ميناء سيروكو(Scirocco) في الجنوب الغربي من الجزيرة بأمر من القائد مصطفى باشا، أصبحت معظم الجزيرة تحت سلطة المسلمين باستثناء حصون سان إيلمو(S$^{t.}$ Elmo) وسان أونجيلو (S$^{t.}$ Angelo) وسان ميشال(S$^{t.}$ Michel ، التي كان يتحصن بها المقاتلين المالطيين . استمر الحصار نحو أربعة أشهر. وفي يوم 17 أوت أصيب القائد درغوث بقذيفة أدت إلى وفاته. فكانت وفاته خسارة كبيرة للقوات الإسلامية.

وهاجمت القوات الجزائرية بقيادة حسن باشا حصن سان ميشال . لكن القلعة صمدت حيث كانت المدفعية المالطية ترسل قذائفها نحو السفن المحاصرة مما أدى إلى إغراق عدد كبير منها . ورغم تلك الخسائر تمكن كانداليسا من التقدم نحو الساحل والنزول به ، وتمكن المقاتلون الجزائريون من القضاء على عدد كبير من الفرسان الذين حاولوا منعهم من التقدم نحو الحصن المذكور. ونصبوا عليه سبعة ألوية ، لكن ذلك كان مقابل خسائر بشرية كبيرة، إذ لم يبق لدى نائب ملك الجزائر سوى قوات تراوح عددها بين خمسمائة إلى ستمائة رجل من الأربعة آلاف رجل.

وفي 7 سبتمبر جاءت من صقلية تعزيزات مسيحية جديدة تتألف من 28 سفينة وعلى متنها اثنتا عشر ألف مقاتل . ولما قرب فصل الشتاء ، اضطر بيالي باشا إلى رفع الحصار نظرا لارتفاع عدد الخسائر البشرية التي لحقت به ، وفضل إنقاذ ما بقى له من القوات وذلك في 12 سبتمبر من نفس السنة. وكانت الخسائر العثمانية كبيرة إذ كلف الحصار نحو عشرين ألف رجل ، أما حسن باشا فإنه هو الآخر قد اضطر إلى الرجوع إلى الجزائر مع سفنه الثمانية والعشرين ، بعدما فقد نصف قواته ، وكان قد أثبت شجاعة قتالية فريدة ، لدرجة أنه كان ينوي البقاء في الجزيرة لمواصلة القتال لصالحه الخاص.